

مقدمة عن:

الأسلوبية... ذلك المنهج الجديد

أ. د. طه وادي

اليوم.. لم يعد ثمة ريب بين الدارسين العرب للنص الأدبي - رغم اختلاف عصوره وتعدد أنواعه - أن المنهج «الأسلوبي»، قد أصبح أكثر المناهج المعاصرة قدرة على تحليل الخطاب الأدبي بطريقة علمية موضوعية، تعيد مجال الدراسة - دراسة النص - إلى مكانها الصحيح، وهو دراسة الأدب من جانب اللغة. ومن المعروف أن علم اللغة الحديث، قد حقق إنجازات علمية باهرة ومنضبطة على يد العالم السويسري «فرديناند دي سوسير» (1857-1913)، ومن عاصره أو جاء بعده من العلماء اللغويين الألمان أو الفرنسيين. ومعنى هذا أن «علم الأسلوب» قد نشأ وازدهر في مجال البحث اللغوي قبل أن يهتم به نقاد الأدب.

وإذا كان علم اللغة الحديث - أو علم الأسلوب اللغوي - قد انفصل عن معظم الدراسات الإنسانية، التي كان ينتمي إليها، وأصبح (علمًا) منضبطًا له قوانينه وقواعده العلمية الخاصة، فإن الفصيل المتقدم من النقاد العرب اليوم، يطمحون إلى توظيف مناهج علم الأسلوب اللغوي، لتكون صالحة لدراسة النص الأدبي. إن النص الأدبي - أو «القول» - ليس إلا واحدًا من مجالات استخدام «اللغة» في جميع مجالات الحياة، ومهما كانت اللغة الأدبية «منحرفة» بالقصد عن التوظيف الإشاري للغة ومحملة بمحتوى عاطفي وحساسية شعورية، فإنها تظل - في النهاية - وقائع لغوية، قابلة للدرس المنهجي، وخاضعة للقوانين العلمية التي حَقَّقها علم اللغة العام الحديث.

ومعنى هذا أن عمل الناقد الأسلوبي هو أن يبيِّن مدى الارتباط بين التعبير اللغوي والشعور النفسى.

وإذا كان علم اللغة الحديث قد انفصل تمامًا عن علم اللغة القديم، فإن «علم الأسلوب الأدبي» يبدو هو الآخر منفصلًا إلى حد كبير عن العلم القديم، الذي كانت

بينهما بعض أوجه التشابه - وهو «علم البلاغة». إن علم الأسلوب وهو علم «وصفى» حديث، يختلف اختلافاً كبيراً عن علم البلاغة، وهو علم «معياري» قديم، يعتمد على قوانين منطقية مطلقة، من هنا يحاول أصحاب هذا العلم - علم الأسلوب الأدبي - أن يجعلوه (بديلاً) موضوعياً جديداً، لعلم البلاغة الجامد القديم. علم البلاغة كان يحاول دراسة «الكلمة» التي تعدل عن معناها القاموسى في إطار علم «البيان»، أو دراسة الجملة، التي تخرج عن معناها الحقيقى إلى غرض بلاغى في إطار علم «المعاني». ولكن هذا العلم - البلاغة - لم يكن يدرس كل ما يتصل بمظاهر «الانحراف» الجمالى فى النص الأدبي، كما أنه تحوّل لدى كثير من العلماء المتأخرين إلى قواعد منطقية جامدة، لا تهتم كثيراً بربط «الكلام» الأدبي بـ «مقتضى الحال» - الذى حرصت على أن تدرسه. وليس أدلّ على تحجّر البلاغة من ازدهار ما يسمّى بعلم «البديع»، ومعظم أبوابه - فى حقيقتها - ليست من البلاغة فى شيء. ومعنى هذا أن البلاغة - رغم تعدد علومها وتشعب أبوابها - قد أصبحت قاصرة عن دراسة النصّ الأدبي.

ويتأسس على هذا أن علم الأسلوب الأدبي - وهو قائم بالتبعية على علم الأسلوب اللغوى - قد غدا الوريث الشرعى الحديث لعلم البلاغة القديم. وهذا العلم الجديد، يقنن لدراسة النصّ الأدبي عبر مجالات أوسع وآفاق أرحب، وهى دراسة النصّ على ثلاثة مستويات لغوية، وهى: التركيب - والدلالة - والصوت، أى أنه يدرس النصّ على كافة مستوياته التعبيرية من أدناها وأبسطها إلى أبعدها وأعقدها، وهو يدرس دلالات الكلمات والجمل وطريقة تركيبها، كما يدرس المعنى الكلى للنصّ، بل إنه يطمح إلى ما هو أكثر من ذلك، وهو خواص الأسلوب العامة عند أديب، أو فى إطار نوع أدبي، أو مدرسة أدبية. وهذا يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه، وهو أن وظيفة علم الأسلوب الأدبي هى استخدام مفاهيم علم اللغة العام لمعرفة الخصائص الجمالية، التى يميز بها النصّ الأدبي.

وقد صدرت فى مجال الدراسات الأسلوبية مجموعة من الدراسات نشير - هنا - إلى

أهمها، وهى:

| | |
|------------------|----------------------|
| لطفى عبد البديع: | التركيب اللغوى للأدب |
| شكرى عياد: | مدخل إلى علم الأسلوب |

| | | |
|---|---|-----------------------|
| اللغة والإبداع | : | شكري عياد |
| دلالة الألفاظ | : | إبراهيم أنيس |
| علم الأصوات | : | كمال بشر |
| مدخل إلى علم اللغة | : | محمود فهمي حجازي |
| اللغة العربية معناها ومبناها | : | تمام حسان |
| نظرية اللغة في النقد العربي | : | عبد الحكيم راضي |
| الأسلوب - دراسة لغوية إحصائية | : | سعد مصلوح |
| علم الأسلوب - مبادئه وإجراءاته | : | صلاح فضل |
| الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي | : | شفيع السيد |
| الأسلوبية والأسلوب | : | عبد السلام المسدي |
| خصائص الأسلوب في الشوقيات | : | محمد الهادي الطرابلسي |
| شعر ناجي - الموقف والأداة | : | طه وادي |
| جماليات القصيدة المعاصرة ^(١) | : | طه وادي |

ويضاف إلى الدراسات السابقة - وغيرها الكثير - هذه الدراسة الجديدة «قضايا التركيب في شعر البارودي» التي أعدها تلميذ النجيب وصديقي العزيز الدكتور فتح الله سليمان . . وكانت رسالته للدكتوراه، وقد بذل فيها جهداً طيباً، سواء في مجال الدراسة النظرية لعلم الأسلوب، أو في مجال الدراسة التطبيقية عند دراسته لأهم قضايا التركيب في ديوان الشاعر العربي الكبير محمود سامي البارودي (١٨٣٩ - ١٩٠٤م). وقد درس بموضوعية وشمولية أهم قضايا التراكيب عند البارودي، وهي: التناوب، والحذف، والاعتراض، والتقديم والتأخير، والالتفات.

ولا شك أن الباحث الدكتور فتح الله سليمان - يدخل بهذه الدراسة الرصينة في إطار كوكبة الباحثين الجادين، الذين حاولوا تأصيل هذا العلم الجديد في عالمنا العربي المعاصر، في مجال الدرس الأسلوبي على مستوييه: اللغوي والأدبي. غير أن التحدي

(١) هناك مجموعة كبيرة من الدراسات المترجمة وبعض الرسائل الجامعية غير المطبوعة - لم نشر إليها، لأنها في حاجة إلى بيليوغرافيا خاصة.

الحقيقى أمام هذا العالم الشاب.. وأمام جيله، ليست فى طرق مجال جديد للبحث فحسب، وإنما هناك ما هو أخطر وأجلُّ.. وهو قضية التواصل والاستمرارية.. وأن يحاول الباحث أن يتخطى - سريعًا رغم كل العوائق والصعوبات - هذه المرحلة إلى مرحلة الإضافة والابتكار.

إن البحث العلمى.. صعبٌ.. وطويلٌ سُلْمُهُ، بيد أن الصبر والمثابرة والجهد والمذاكرة، أسلحة الباحث الطموح، كى يَمْضَى - قُدْمًا - إلى الأمام. وهذا هو ما أرى أن الدكتور فتح الله سليمان - وجيله - قادرون عليه. بإذن الله.

وإنه العلى القدير أسأل أن يوفقنا جميعًا من أجل تقديم الجيد والجديد.. ومناصرة النافع والمفيد.. وتأسيس كل ما هو سديد، فى حياتنا العلمية وجامعاتنا العربية، إنه نعم المولى.. ونعم النصير.

د: طه وادى

استاذ الأدب العربى الحديث

يناير ١٩٩٠م

كلية الآداب - جامعة القاهرة

مقدمة

تعد الأسلوبية من أحدث ما تمخضت عنه علوم اللغة في العصر الحديث . والراصد لتيارات النقد العربي واتجاهات البحث اللغوي يلحظ أن هذا المجال ما يزال في بداياته المبكرة في نطاق الدراسات العربية .

والأسلوبية هي أحد مجالات نقد الأدب اعتماداً على بنيته اللغوية دون ما عداها من مؤثرات اجتماعية أو سياسية أو فكرية أو غير ذلك . . أى أن الأسلوبية تعنى دراسة النص، ووصف طريقة الصياغة والتعبير .

والأسلوبية وعلم الأسلوب مصطلحان مترادفان، وقد أثر البحث أن يستخدم أولهما، لأن هناك من يزعم أن الأسلوبية ليست علماً .

وثمة تعريفات ثلاثة لمصطلح «أسلوب»:

التعريف الأول: ويتم من منظور المنشئ . ويقوم على أساس أن الأسلوب يعبر تعبيراً كاملاً عن شخصية صاحبه، بل ويعكس أفكاره ويظهر صفاته الإنسانية .

أما التعريف الثاني: وهو ينبع من زاوية النص، فيعتمد على فكرة الثنائية اللغوية التى تقسم النظام اللغوى إلى مستويين: مستوى اللغة، ويقصد به بنية اللغة الأساسية، ومستوى الكلام، ويعنى اللغة فى حالة التعامل الفعلى بها .

ويتقسم المستوى الثانى إلى قسمين آخرين:

أولهما: الاستخدام العادى للغة، **وثانيهما:** الاستخدام الأدبى لها .

وهذا المستوى الثانى هو مجال البحث الأسلوبى باعتبار أن الفرق بين الاستخدام العادى للغة والاستخدام الأدبى لها يكمن فى أن هناك انحرافاً فى المستوى الثانى عن النمط العادى . والانحراف - هنا - يعنى الخروج على ما هو مألوف فى الاستعمال اللغوى مما يُشكّل - فى النهاية - ما يُسمّى بالخاصية الأسلوبية .

وأما التعريف الثالث: فهو يتحدد من جهة المتلقى، وأساس هذا التعريف أن دور المتلقى فى عملية الإبلاغ مهم إلى الحد الذى يراعى فيه المخاطب حالة مخاطبه النفسية ومستواه الثقافى والاجتماعى . كما يؤثر فى هذا الخطاب عُمرُ المخاطب وجنسه . وعلى

المشئء أن يثير ذهن المتلقى حتى يُجَدِّث تفاعلاً بينه وبين النص، واستجابةً المتلقى ورفضه هما المحكُّ في الحكم على مدى حدوث هذا التفاعل.

واختيار شعر البارودي (١٨٣٩ - ١٩٠٤م)، لدراسة قضاياها التركيبية يرجع إلى أمرين:
الأمر الأول: ويتمثل في أن البارودي يعد - بحق - رائد النهضة الشعرية وباعثها بعد عصور من التخلف والانحطاط، فهو الذى ردُّ للشعر مكانته العظيمة ومنزلته السامية بعد أن أصبح وسيلة للتكسب والارتزاق، وليس ثمة شك في أن مدرسة الإحياء التى تزعمها البارودي «قد قامت بالدرو الأول ومثلت البدء الضرورى والصحيح لأية نهضة أدبية تالية في أى من الأقطار العربية»^(١).

الأمر الآخر: أن الباحث قد سبق له التعامل مع شعر البارودي، وذلك في رسالته عن «الجملة الشرطية في شعر محمود سامى البارودي» التى نال بها درجة الماجستير، فأتاح له ذلك الاطلاع - على نحو ما - على شعر البارودي والوقوف على بعض سماته. ويحاول هذا البحث دراسة القضايا التركيبية في أسلوب البارودي من حيث الأنواع والسمات والخصائص، كما يحاول وصف بنية العربية في شعره تطبيقاً على إنتاجه الشعرى، مما يتيح لنا الوقوف على الثوابت والمتغيرات في هذه اللغة وعلى خصائصها المميزة، كما يمكننا ذلك من معالجة النص بمعايير منضبطة، حيث يبرز بوضوح أهمية المعيار الموضوعى لترشيد الأحكام النقدية.

وهذه الدراسة لا تعنى بتحديد القضية ودراستها فحسب، بل إنها - وهذا هو اتجاهها الأساسى - تهتم بتوضيح مدى شيوع الظاهرة الأسلوبية أو ندرتها مستخدمةً في ذلك المنهج الإحصائى.

ويقوم هذا البحث على ثلاث ركائز أساسية:

- الأولى: الوصف.

- الثانية: التحليل.

- الثالثة: استخلاص النتائج.

وهذا البحث يتناول أبرز القضايا التركيبية في شعر البارودي مستخدماً في ذلك

(١) د. طه وادي: جماليات القصيدة المعاصرة، دار المعارف (١٩٨٢م) ص ٢٠١.

المصطلحات البلاغية والنحوية باعتبارها وسائل إجرائية لدراسة الظواهر الأسلوبية، حيث إن العلاقة بين الأسلوبية وكلّ من البلاغة والنحو وثيقة ومؤكدة.

وتقع هذه الدراسة في سبعة فصول:

الفصل الأول: «الأسلوب والأسلوبية»: ويتناول تحديد مفهوم الأسلوب من زواياه الثلاثة: المخاطب والمخاطب والمخاطب، والبحث عن أصول الأسلوبية في التراث من المنظورين: النحوي والبلاغي، كما يدرس هذا الفصل العلاقة بين الأسلوبية وكل من البلاغة والنقد الأدبي.

ويتعرض هذا الفصل أيضًا للأسلوبية في إطار الدراسات اللغوية والنقدية المعاصرة من حيث المفهوم والاتجاهات والمجالات والوظيفة. ويبحث أيضًا المدخل إلى الدراسة الأسلوبية وأهمية البحث الأسلوبي.

الفصل الثاني: «التحليل الأسلوبي»: وفيه عرضٌ لأهمية هذا التحليل وكيفية ومخاذه، ثم عرض لبعض الدراسات الأسلوبية المعاصرة في مجال التحليل الأسلوبي.

الفصل الثالث: «التناوب»: ويُقصد به إحلال لفظ محل لفظ آخر، أو أداة محل غيرها، أو حرف محل ما يناظره. وينقسم إلى تناوب في الأفعال. وتناوب في الأسماء، وآخر في المصادر، ورابع في الحروف.

الفصل الرابع: «الحذف»: وفيه تحليل لمواضع حذف المسند إليه في الجملة الاسمية، وحذف المسند والمسند إليه في الجملة الفعلية، وحذف المسند والمسند إليه والاكتفاء بالمفعول المطلق، وحذفهما لوجود قرينة على حذفهما، وحذفهما في التراكيب الشائعة.

ويتعرض الفصل أيضًا للحذف في التركيب الشرطي، ثم لحذف النعت والمنعوت، والمستغاث به، والمستغاث لأجله، والمعطوف عليه.

الفصل الخامس: «الاعتراض»: ويُقصد به اعتراضُ كلام بين عنصريين متلازمين. وفيه دراسة لظواهر الاعتراض بين عناصر الجملة الفعلية، وبين عناصر الجملة الاسمية بركنتها المبتدأ والخبر والجملة الاسمية المنسوخة بياناً أو إحدى أخواتها، ثم الاعتراض بين النعت والمنعوت، وأخيراً الاعتراض في التركيب الشرطي.

الفصل السادس: «التقديم والتأخير»: ويدرس السمات العامة للتقديم والتأخير، مثل: تقديم المفعول به، والحال، والمفعول لأجله، والمفعول به والمفعول لأجله معًا، والمفعول به والتميز معًا، والمفعول به والجار والمجرور معًا، والمفعول به والحال والجار والمجرور في آن. ثم يتعرض الفصل للسمات الخاصة، مثل: تأخير الفاعل ووقوعه مقطوعًا للبيت، وتأخيره ووقوعه بين المفعول الأول والمفعول الثاني. وأخيرًا يتعرض الفصل للتقديم والتأخير في التركيب الشرطي.

الفصل السابع: «الالتفات»: وهو الانتقال من أسلوب إلى آخر أو من ضمير إلى غيره مع اتحاد المرجع. ويبحث الالتفات عن ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب، وعن ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب، وعن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم، ثم الالتفات عن ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب، كما يتطرق الفصل إلى ظاهرة الإخبار عن المؤنث بالمذكر، وظاهرة التحول عن المذكر إلى المؤنث وعكسها.

وتعتمد هذه الدراسة - من حيث المادة اللغوية - على مصدر واحد فقط هو ديوان البارودي بأجزائه الأربعة ط دار المعارف. حقق الجزأين الأول والثاني على الجارم ومحمد شفيق معروف، وحقق الجزأين الثالث والرابع محمد شفيق معروف. وأخيرًا، فهذه محاولة للتأصيل النظري والتطبيق العملي في مجال البحث الأسلوبي، ولا نزعم أننا قد بلغنا بها الغاية وحققنا المراد، وحسبنا أن تكون هذه الدراسة خطوة في مجالها قد تضاف إلى ما سبقها وما سيلحقها من خطوات.

فتح الله سليمان
